



2015

1436

13

مجلة محكمة تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف - الجزائر

- القرآن والعبادة.
- أمور العالم في عصر ما بعد العداثة
مقاربة في الفعل الحضاري.
- حكم صوم يوم السبت.
- توصيات المجالس العلمية الوصية
في بعض القضايا والمسائل.



توزع مجاناً

رسالة المسجد

مجلة محكمة تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر

المدير العام مسؤول النشر
الدكتور محمد عيسى
وزير الشؤون الدينية والأوقاف

رئيس التحرير: د. محند أو إدير مشنان، مدير التوجيه الديني والتعليم القرآني.

مستشار المدير العام: د. بزاز لخميسي، المفتش العام.

أمين التحرير: أ. بلال سعيدان، إطار في المديرية الفرعية للتوجيه الديني والنشاط المسجدي.

هيئة التحرير

أ.د. عبد الله بوخلخال، مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة.

أ.د. عمار مساعدي، عميد كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.

أ.د. عمار طالبي، باحث جامعي، رئيس المجلس العلمي لولاية الجزائر.

أ.د. بوزيد بومدين، مدير الثقافة الإسلامية.

أ.د. مصطفى باجو، باحث جامعي، غرداية.

أ.د. خالد بوشمة، باحث جامعي، جامعة البليدة.

د. موسى إسماعيل، باحث جامعي، جامعة الجزائر 1.

أ. محمد شيخ، مفتش مركزي.

أ. عيسى مقاري، المدير الفرعي للبرامج وتحسين المستوى.

أ. نور الدين محمدي، المدير الفرعي للتعليم القرآني.

أ. خالد يونس، المدير الفرعي للتوجيه الديني والنشاط المسجدي.

المحتويات

- القرآن والحياة.
- 3 الدكتور محمد عيسى وزير الشؤون الدينية والأوقاف.
- دور العالم في عصر ما بعد الحداثة مقارنة في الفعل الحضاري.
- 18 الأستاذ الدكتور محمد باباعمي.
- الإمام ابن عطية الأندلسي ومنهجه في تفسيره المحرر الوجيز.
- 40 الأستاذ أحمد قواسم.
- حكم صوم يوم السبت.
- 56 الأستاذ الدكتور عامر العرابي.
- حوار مع فضيلة الشيخ محمد شارف رحمه الله في ذكرى وفاته.
- 67 توصيات المجالس العلمية الوطنية في بعض القضايا والمسائل.
- 81 موازنة بين رأيي المؤيدين والمعارضين للاحتفال بمولد خير الأنام ﷺ.
- 103 الأستاذ منصور بولعراس.
- خطبة العدد.
- 116 الأستاذ مراد خيشان.
- محضر المسابقة النهائية لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره.
- 116

القرآن والحياة

معالي وزير الشؤون الدينية والأوقاف الدكتور محمد عيسى
الكلمة الافتتاحية في الأسبوع الوطني السادس عشر للقرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق قبل الموت والحياة ليلو الناس
أيهم أحسن عملاً.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من بعثه ربه رحمة للعالمين،
وسراجاً منيراً، فهدى به الخلق إلى أقوم طريق وبعد؛

فإنها لساعة كريمة وكرامة قرآنية مباركة، أن يجتمع أهل القرآن، بل أهل
الله وخاصته في المحفل العلمي البهيج، ليتدارسوا كتاب ربهم ويكشفوا
أسراره ويتصلوا إلى كنوز معرفته، فيعملوا على إصلاح حياتهم وتقويم
شأنهم، وأكرم بمدينة وهران محضناً لمثل هذا اللقاء.

فيمثل هذه الكوكبة تأنس مدينتكم وهران، وبموضوع ملتقاكم فاخرت
حاضرتكم، فقد كنتم على مدى الزمن لهذه القبلة أهلاً، ولجراحها بلسماً،
ولروحها أنساً، إن تُربها الأصيل، وكهوف جبالها التي امتزج فيها ذات يوم
صوت القرآن بدماء الشهداء، ليرقص اليوم طرباً، وهو يسمع الحفدة يتلون
القرآن الكريم في بلدهم الحرّ، مذكرين الدُّنا بجيش الطلبة، الذي هبّ
لنجدة وطنه حين جثم الاستعمار البغيض على أرضه، يسومها وأهلها سوء

العذاب، إن أرواحهم الطاهرة لتظل في هذه اللحظة المكان تبارك جهدكم وتفرح لصنيعكم.

أيتها السيدات الفضليات، أيها السادة الأفاضل

لقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم خاتما لرسالات الأنبياء والرسل قبله، فأتم البناء أكمله، وجاء القرآن الكريم تتويجا للوحي الإلهي كله، فبه استدرك النقص وكمل التشريع، وإليه آلت القيادة، قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾⁽¹⁾.

وإن هذه الحقيقة لتثقل ظهر هذه الأمة المختارة بجملته من الآمال، وتُحَمِّلها أمانة النهوض من حال الكبوة وبؤس التخلف، حتى تكون بحق خير أمة أخرجت للناس، فكيف السبيل إلى ذلك؟

لقد اهتم القرآن الكريم بحياة الناس - كل حياتهم - لم يستثن تفاصيلها، فضلا عن كبرى قضاياها، وحين تستوقفنا آية المداينة عند تفصيل بسيط في المعاملات المالية في أطول نص تضمنته آية واحدة من الكتاب، ندرك لحظتها هذا المعنى الهام.

فحيثما وليت وجهك في شؤون الحياة تستوقفك شجونها، أو تحركك مشكلاتها، أو تحفزك آمالها، أو تقعدك عن كل ذلك همتك، ذكرا كنت أم أنثى فردا كنت أم جماعة، فأعلم أن القرآن الكريم قد سبقك إلى تلك الساحات بصريح لفظه أو عارض نص، مصححا للمفاهيم، ومقوِّما للسلوك، وضابطا للمشاعر، يهدي من تنورت بصيرته إلى سبيل الرشده والهدى، يُحيي به الأنفس والأمم من موات، كما يبعث الماء هامد الأرض مهتزة أرجاؤها، قد ربا نباتها وأقبل ربيعها. قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽²⁾.

لقد جاء القرآن الكريم يدعو الناس إلى الحياة، حياة يملؤها العمل الصالح المثمر النافع للجميع، فبعض العيش - بمنطق الكتاب الكريم - مؤت لا نبض فيه يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (3).

إنما يدرك هذه المعاني المصلحون في هذه الآية على مرّ العصور، فيحاولون جهد استطاعتهم، حمل الأمة على إدراك كبرى الغايات والأهداف، إن مفهوم الحياة وضرورة العيش لإعمار هذه الأرض هي غاية من غايات الوجود الإنساني في هذه الحياة الدنيا ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (4)، أي طلب منكم عمارتها، إذ المقصد الأعم للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، أو كما يقول ابن عاشور: «استدامة صلاح الأرض بصلاح المهيمن عليها، وحفظ نظامها، وقيام المكلفين بما كلفوا به من عدل واستقامة، وإصلاح في الأرض واسنباط خيراتها، وتديير المنافع للجميع».

وذلك وظيفة الخلافة عن الله تعالى، فالاستخلاف هو وظيفة الإنسان، وقد أكدته صراحة كثير من آيات القرآن، وف مقدمتها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (5).

يقول ابن كثير: أي جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، خلفا بعد سلف، ليختبركم في الذي أنعم به عليكم من العلم والقوة والجاه والمال والسلطان، كيف تتصرفون فيه.

فالإنسان بما وهب من استعدادات تكريمية عظيمة عقلية ونفسية وجسمانية وخلقية تؤهله ليكون خليفة في الأرض كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (6).

لقد اختير الإنسان ليكون أميناً على الأرض، ومسؤولاً عن إنجاز مشروع الاستخلاف، بكل ما يتضمنه من تعمير وانتفاع، وسيادة، وتناغم وانسجام مع سنن الله في خلقه، كما يشهد على ذلك سجود الملائكة لآدم، أبي البشرية عليه السلام، وهو إجراء رمزي دل على الاعتراف بأحقية الجماعة البشرية في التقدم على سائر المخلوقات للإشراف على رعاية شؤون عالم الشهادة، وتدير أمر الإنسان، والسير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية الحقة التي تحفظ التوازن الكوني، وتضمن استقرار الحياة، وتهيئ الاستمتاع بما فيها من متع مادية ومعنوية لكل من انضبط بقوانين الاستخلاف والتزم بشروطه في فهمه وسلوكه، وحركته في الحياة.

إن الأرض تعمر بالبنیان والزرع والتجارة والحياسة والصناعة والسياحة، وبكل نشاط بشري مثمر، هذا توجيه السماء لأهل الأرض من المؤمنين، بأن يبذلوا الوسع في التمتع وفق الضوابط بما جباهم الله تعالى من خيرات، وبما سخر لهم من إمكانات، هم أولى الناس باستعمالها وأقدرهم على شكرها وحسن توظيفها، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (7).

إن للحياة في الإسلام قيمة عظيمة، ورمزية بالغة الدلالة، وهي مقصد ضروري من مقاصد التشريع الإسلامي، تضافرت النصوص الشرعية للتنبؤ

به وللتأكيد على وجوب خدمته. ولتحقيق ذلك عمدت الشريعة الإسلامية إلى وضع جملة من التقنيات والإجراءات غايتها الحفاظ على النفس البشرية صونا لها ولكل ما يخدمها، وفي هذا السياق فقط يمكننا أن نفهم جملة النصوص الشرعية التي تمنع الاعتداء على النفس البشرية وتعتبر ذلك اعتداءً على الإنسانية جمعاء، لأنه مس بحق الوجود الحياة، قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (8).

إن المجتمعات الراقية المتحضرة، هي التي تحترم النفس البشرية وتكرمها، وتأبى التعرض إليها بالسوء مهما كانت الأسباب والمصوغات، وقد أنكر القرآن الكريم على أقوام سلوكات بهيمية صوّغتها عقولهم المتحجرة وقلوبهم المّيتة وإحساسهم المتبّلد، إذ صوّغت لهم الجهالة دس فلذات أكبادهم من البنات في التراب. وصدق الحق تعالى القائل: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (9)، إنها انتكاسة للشعور الإنساني، وخروج عن الفطرة البشرية، ونزول بها إلى درك البهيمة، وصدق الله القائل: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (10).

وقد توعد الحق تبارك وتعالى من يجراً على الاعتداء على النفس البشرية بإزهاقها وعيداً شديداً، وقض في حقه بجملة من العقوبات تفسد عليه دنياه وأخراه قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتَلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ (11)، ﴿وَمَنْ يَقتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبٌ عَلَىٰهِ وَلَعْنَةٌ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (12). إن هذه العقوبة الرّادعة تبرز قيمة النفس المؤمنة عند الله تعالى وعلو شأنها

وقدرها في القرآن الكريم، وهو ذات المعنى الذي أكده المصطفى صلى الله عليه وسلم في مشهد رائع وموقف مهيب، فهاهو ينظر إلى الكعبة المشرفة قبله المؤمنين وهوى الأفتدة فيقول لها: «مَا أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتِكَ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ»⁽¹³⁾، ما أعلى الحياة عند الله تعالى وما أرخصها في دنيا الناس، الله أكبر.

كم ترقى الروح الإنسانية في معارج الملكوت الإلهي، وهي تنفيًا لظلال الوحي وهدى السماء، وكم تهوى بها الممارسة الإنسانية دركات في حمأة الجهالة والظلم البشري.

إن الحياة هي الغاية التي قصدها التشريع الحكيم، وهو يتبع يد الإجماع الآثمة التي امتدت إلى النفس البريئة المعصومة فأزهقتها، لقد أعلى القرآن الكريم بذلك شأن الحياة، ولفت أولي النهى والبصائر إلى إدراك حكمة التشريع، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾⁽¹⁴⁾.

إن الحياة في منظور التشريع الإسلامي محترمة مقدسة، مهما كان جنس النبض الذي يحركها، حتى وإن تباينت مراتبها محتومة، نفسا بشرية كانت أو حيوانا أو نباتا، وصناعة المعروف مهما جمعًا باب للخير عظيمة، قد ترفع أقدار أصحابها عند الله عز وجل، وتُعَلِّي مكائهم عنده، فيشرون بقليل جهد عظيم أجر، ويستوقفنا في هذا الموقف حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي أخبر صحبه والناس جميعا من بعدهم أن: رَجُلًا سَقَى كَلْبًا شَرِبَةَ مَاءٍ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، فيتساءل القوم في دهشة: وإن لنا في البهائم لأجرا يا رسول الله فيقول: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ»⁽¹⁵⁾. والحياة لا تأخذ قيمتها في الإسلام بالنعف الحاصل منها، بل إنها منشودة وإن تعذر الانتفاع منها، وما أروع ذلكم المشهد الذي يصوره النبي صلى

الله عليه وسلم وهو يبرز هذا المعنى حين يقول : ((إِنَّ قَامَتِ السَّاعَةُ
وَيَبِيدُ أَحَدِكُمْ فِسِيلَةً، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ))⁽¹⁶⁾، إن
غرس الفسيلة وَهَبُ حياة لا تدوم طويلا، وثمره هذا الجهد لن ينتفع به
أحد، ولكن العمل لأجل الحياة قيمة عظيمة يحرص الإسلام على تعليمها
لمتسبيه، فهل تعلموا؟

إن المتأمل في واقع المسلمين يلاحظ مع كل أسف شديد، أنهم أبعد ما
يكونون عن تعاليم الدين الحنيف وتصرفات قطاع كبير منهم، تتم عن جهل
عميق بحقائق الدين، وقصور فادح في فهم تعاليم الإسلام، وإن تعجب
فعجب أن تتحول الخطيئة في دنيا الناس إلى حسنة، يتسابق الناس إلى
إتيانها، وإلا كيف نفسر إقدام المسلم الذي يعلم أن الانتحار حرام، وأن
صاحبه موعود بسوء العاقبة، وأن الله الذي خلقه به رؤوف رحيم؟ كيف يُقدم
من يؤمن بأن الأمر كله بيد الله، وبأن الخير كله بيد الله على قتل نفسه انتحارًا،
ويتلوه منتحر فمنتحر؟ وبدل أن يُحرّم المجتمع هذا الفعل ويرفضه، نجد بكل
أسف من يباركه ويشجعه، ويصف من يأتيه بالبطولة والشجاعة!! بل قد يُمجد
فعله ويلتمس له بين يدي الله الأعذار، وربما وُجد في أشباه الإعلاميين من
يروّج لفعله ويُكبر صنيعه، بل ربما ارتفعت في سوق المزایدات السياسية
أصوات ناعقة، أصبغت على الفعل ثوب الجلال، واعتبرت مقترفيه في عداد
الشهداء، ونيابة عن الله تعالى أدخلتهم الجنة!!

إن هذا الخلط المتعمد لمفاهيم الدين أضر بالمصلحة الإسلامية ضررًا
كبيرًا، وعرض مُحكم نصوصها إلى الانتقاص، وجرأ الرعاع على حدود
الله تعالى، وأصبحت حمى الله تعالى التي حصنتها أي الذكر الحكيم وسنة
المصطفى المطهرة، أرضا مستباحة لمن قلّ زاده العلمي وانطمست بصيرته،

فأهدرت الدماء المعصومة، وانتهكت الحرمات المصونة، وسرقت الأموال المحفوظة باسم الإسلام، والإسلام براء وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَرِّقُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (17).

وهل هناك افتراء في دنيا الناس اليوم أكبر من زعم بعض الممتمين إلى الإسلام بأشكالهم لا بأرواحهم وصفاتهم، أن قتال المسلمين الموحدين المصلين المزكين يُعدّ جهادا، وأن أموالهم وأعراضهم مستباحة باسم الإسلام!! فستان بين منهج القرآن الكريم الذي جسده النبي ﷺ في حياته وبين أفعال هؤلاء المضرين لدينهم وكتابهم ونبیهم. شتان بين من بعثه ربه رحمة للعالمين وبين من صوروا الإسلام بغيا وعدوانا، شتان بين من جاء بالمحجّة البيضاء وبين من حولوا دنيا الناس ظلماً وظلمات.

لقد كان الجهاد في هذه الأمة حربا دفاعية عن المعتقد والأرض، غايتها التصدي للعدوان والمعتدين وحماية رسالة الدين وسراجه المنير، لا إكراه ولا بغى، لا تزهق نفس معصومة بدين أو عهد، ولا يعتدى على مال أو عرض، بل إن الأشجار والزرور والدور مصونة محفوظة، فكيف يتحول هذا المفهوم النبيل إلى وسيلة لسفك الدماء المعصومة وانتهاك الحرمات المصونة؟.

فأين هؤلاء من حديث المصطفى ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ» (18)، بل لقد حفل هذا الدين وأتباعه بكل من أنتسب إليه، وتحجب إلى الناس يستعطف قلوبهم ويخاطب عقولهم حتى يقبلوا على الحق، وربما تألف بالمال أقواما تحببوا لهم في الدين، فكيف يتحول بعض دعاة الإسلام اليوم إلى مكفرين ومبغضين، بل لقد ضاقت عليهم ساحة

الإسلام على رحابتها فراحوا يُخرجون، بعض أهله منها مخالفين توجيه السماء: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾⁽¹⁹⁾.

إن دماءً غزيرة تُسْفِكُ اليوم في ساحات كثيرة، وفي أماكن عدّة من بلاد المسلمين باسم الإسلام، وإن الله براء من هذه الجرائم والآثام المرتكبة، أيمن أن يكون في دنيا الناس مَنْ هو أغير على الدين من نبي الإسلام؟ أيمن أن يكون في المؤمنين مَنْ هو أحرص على حدود الله من رسول الله ﷺ القائل: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ»⁽²⁰⁾. فكيف يتجاسر بعد هذا أناس فيأتون في الدين بمنكر الفعال وقبيح الصنائع بدعوى الغيرة على الشريعة الغراء، والحرص على تطبيقها.

لقد نظر القرآن الكريم إلى ألوان من الحياة بازدرء شديد، وأنكر على أقوام تشبثهم ببقاء لا كرامة فيه ولا مبدأ قال تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوتِهِ﴾⁽²¹⁾.

إن بعض الحياة موت، بل إن الموت أفضل مرات من وجودٍ تنعدم معه كل قيم الحياة الكريمة، وصدق الشاعر إذا يقول:

لَيْسَ مِنْ مَاتَ فَاسْتَرَّاحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

إن الحياة التي تهفو النفس الكريمة إلى عيشها، وتحرص على الاستزادة منها، هي الحياة المليئة بالقيم الأخلاقية والجمالية والفكرية، حياة يشعر فيها الإنسان بآدميته، فيأمن فيها على نفسه من الأذى، وتتهياً له أسباب الارتزاق، وإن حالت عوارض دون الكسب الكريم هبَّ المجتمع ومؤسساته المختلفة تتنافس لخدمته، إنها الحياة التي يملك أن يقيم شعائر دينه في كنف الهدوء والطمأنينة، وأن يقول رأيه، ويعبّر عن كيانه، يتناصح وبقية

أفراد المجتمع، كرامته محفوظة وإنسانيته مصانة، لا رُق ولا استبعاد، وما أروع مقولة الفارق عمر رضي الله عنه: «متى استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

إن الحديث عن التضامن بين أفراد المجتمع المسلم ليس شعاراً أجوف، ولا مجرد مزيدة في سوق الفكر، إنه قناعة راسخة بوجوب التكاتف بين الأفراد، كرسته جملة من التعاليم والمبادئ ثم الأفعال والممارسات، فانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾⁽²²⁾.

وعملاً بقول صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى»⁽²³⁾، تكفل المجتمع المسلم بفئاته الهشة الفقيرة بصورة مختلفة وفي مستويات عديدة.

فقد أمر المؤمن بأن يصل رحمه، حتى يبارك له في رزقه وينسأ له في عمره، ومن أبسط وأقرب هذا الوصل أن ينفق الموسر على أهل قرابته المحتاجين، وله بذلك أجر الإنفاق وصلة الرحم.

وطلب من الجار أن يرعى جاره القريب ويتعهده بالمساعدة والعون، فإن قَصُرَ مع وجود الوسع أثم بلا ريب، قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَبِيتُ شَبَعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ»⁽²⁴⁾، ولم يتردد بعض فقهاء الأمة في إلزام الجيران بدية الميت جوعاً في الحي باعتبارهم قتلة مخطئين.

إن العجز في فهم الأولويات مظهر آخر من مظاهر التخبط الفكري عند شريحة عريضة من المجتمع المسلم، وعدم القدرة على تقديم الأهم على

المهم قصور، يطال العقل المسلم، وتعظيم فضائل الأعمال على فروض الكفايات وجه آخر للبؤس والتخلف المرفوض.

إن معارك شبه علمية تثار في منتديات المسلمين على مسائل بسيطة في الشرع، تستنفد جهداً وتخلق شغباً بالغاً، وتورث آثاراً مدمرة على مستوى التماسك الاجتماعي، وبالمقابل لا يصرف من هذا الاهتمام كله شيء حيال فروض الكفايات التي عليها قوام حياة مجتمعاتنا، إن الزراعة والصناعة ومختلف الحرف التي تحتاجها الأمة تصبح فروضاً عينية في حق من يتقنها أو من كلفته الأمة بها، ياثم عند التقصير في أدائها كما ياثم على تركه العبادات.

فهل التفت هؤلاء إلى الواجبات التي تطوق أعناقهم، حتى يرفعوا عن أمتهم ذلاً وصغاراً ومهانة أدركتها بسبب التقصير وسوء الفهم.

إن يد الفلاح الخشنة المتسخة بفعل الكد والعمل أحق عند الله تعالى بالتقيل من يد كسلى عاطلة وإن كانت نظيفة يفوح منها العطر.

لقد أدركت أمتنا في أزمان مضت واجباتها، فقامت عليها أحسن القيام، وتعلمت من سنة نبيها أن المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف⁽²⁵⁾، فسعت في سبيل تحقيق معنى القوة، وأيقنت أن اليد العليا خير من السفلى⁽²⁶⁾، فرفضت المسألة ومذلتها، وجعلت شعارها حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا، فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ»⁽²⁷⁾، وعرفت بحق معنى الاستخلاف في الأرض، فعاشت نظيفة نقية في فكرها وخلقتها بل في لباسها وعمرانها.

لم يكتف المهندس المعماري الرسالي في تاريخ هذه الأمة بتحقيق الظروف الضرورية للعيش الكريم من خلال هندسة المنزل الفسيح المضيء المشمش المحافظ على خصوصية أهله، والحي المنسجم المنظم المتناغم في أزقته ومبانيه، والمدينة النموذج بكل مرافقها من مسجد وأسواق متخصصة في مختلف المنتجات الزراعية والتجارية، بل تعدى الأمر ذلك كله حتى أصبحت شوارع الحواضر الإسلامية الكبرى تُرَشُّ بالعطور في المناسبات الدينية الكبرى فيفوح المسك من أرجائها، كما تصف ذلك المستشرقة زيقريد هونكه في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب».

وإذا أردنا أن نعرف مدى التدهور الأخلاقي الذي تدرجنا إليه، ومدى اللوثة الفكرية التي أصابتنا على مختلف المستويات، فعلينا أن نقارن بين ذلك المستوى الحضاري الرفيع الذي عاشته هذه الأمة، وبين الواقع المؤسف لبيوتاتها وأزقتها وأحيائها ومدنها، لقد فقدنا ذوقاً عرفناه، وتبدل شعورنا حيال كثير من المظاهر السلبية التي كان من المفترض أن تكون من أبرز اهتماماتنا.

إن أمة الوضوء والطهارة تغرق أحيائها في الوساخة، أيعقل أن أمة الصنوف المستقيمة في الصلاة تعيش الفوضى في كل مناحي الحياة؟ أيقبل أن أمة الصلاة الموقوتة هائمة لا تقيم وزناً للساعات والأيام فضلاً عن الدقائق واللحظات؟

أيعقل أن أمة المسابقة في الخيرات تصل آخرًا إذا تنادت الأمم إلى المَكْرُمات؟.

لقد صاحبت الحياة المدنية الأولى مؤسسة تشريعية قوية وفاعلة، تفاعلت مع مختلف المشكلات التي يمكن حصولها في تنظيم الجوار

والمدينة، فهذا حديث عن حقوق الارتفاق، وشروط البناء، وذاك تنظيم للشرب والسقي... وما إلى ذلك مما أصبغ على الفعل المادي البحث بُعداً حضارياً متميزاً.

فلماذا أفسدنا بعد إصلاح، والقرآن الكريم ينهانا عن ذلك ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽²⁸⁾، ولماذا تنكبنا الطريق بعد أن عرفناه؟

أيتها السيدات الفضليات، أيها السادة الأفاضل:

إن المجتمعات الإنسانية مطالبة اليوم بأن ترقى بفكرها وممارساتها في كثير من جوانب الحياة، فبعض الشعوب تنظر إلى غيرها بكثير من الدونية، قد تصل إلى درجة الاحتقار، وبعض الناس لا يعترفون بحق بعض بني جنسهم في الحياة، وإلا كيف نفسر جرائم الإبادة الجماعية في حق شعوب بأكملها لأسباب دينية أحياناً، ولأسباب عرقية أحياناً أخرى.

على البشرية أن تشعر بالخجل، وهي تقف شاهدة في هذا الزمن المتأخر من عمرها على هذا البغي، وعليها أن تشعر بالخزي وهي تحصي آلاف الموتى جوعاً كل شهر، وما أبعد التصور القرآني لغاية التنوع البشري عن هذه الفوضى قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁽²⁹⁾.

إن الحياة في الإسلام طهر ونقاء، رفعة وسناء، إنها جلال يملأ القلب مهابة الخالق الحياة هو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾⁽³⁰⁾، وإنها واحة تأنس فيها الأنفس المطمئنة، قبل استكمال رحلة الحياة الدائمة ﴿وَلِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ لَدُنْكَ حَتْمٌ مِّنْ أَلْفٍ مِّنَ الْأَشْجَارِ إِذْ هُمْ يُعْرَفُونَ﴾⁽³¹⁾.

ما أحوجنا أيها الأفاضل إلى إعادة النظر في كثير من التصورات والأفكار والممارسات، التي حكمت حياتنا فأثمرت واقعا تعالت الأصوات برفض كثير من نتائجه وإفرازاته، وقد حدد القرآن الكريم طريق، هذه المرجعة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُعَيَّرُ مَا يَقَوْمٌ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁽³²⁾.

إن حركة التغيير ليست ضربة لازب ولا نفخ ساحر، إنها مجاهدة لعتيق القناعات وقبيح التصرفات وكبح للشهوات.

نملك أن نغير من واقعنا ونستطيع أن نحسّن من تصرفاتنا حتى نهنأ بالعيش الكريم ونسعد بالحياة التي وهبها إيانا رب العالمين.

لا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أرجو لكم جميعا إقامة طيبة في مدينة وهران مدينة الطلبة، راجيا أن تكمل أشغال هذا الأسبوع العلمي بالنجاح والتوفيق، حفظ الله الجزائر وأهلها بالقرآن الكريم، وفقكم الله وسدّد خطاكم.



الهوامش

- (1) سورة المائدة/48.
- (2) سورة الروم/50.
- (3) سورة الأنفال/24.
- (4) سورة هود/61.
- (5) سورة البقرة/30.
- (6) سورة الأحزاب/72.
- (7) سورة الأعراف/32.
- (8) سورة المائدة/32.
- (9) سورة التكويد/8 - 9.
- (10) سورة الأعراف/179.
- (11) سورة النساء/92.
- (12) سورة النساء/93.
- (13) أخرجه الترمذي (4/378، رقم 2032).
- وابن ماجه (2/1297، رقم 3932).
- وابن حبان (13/75 - 76، رقم 5763).
- (14) سورة البقرة/179.
- (15) أخرجه البخاري (3/111، رقم 2363).
- وفي غير هذا الموضع.
- ومسلم (4/1761، رقم 2244/153).
- (16) حديث صحيح أخرجه الإمام أحمد في المسند (20/296، رقم 12981).
- (17) سورة النحل/116.
- (18) أخرجه مسلم (4/1986، رقم 2564/32).
- (19) سورة النساء/94.
- (20) أخرجه البخاري (7/2، رقم 5063).
- (21) سورة البقرة/96.
- (22) سورة المائدة/2.
- (23) أخرجه مسلم (4/1999، رقم 2586/66).
- (24) أخرجه الحاكم في المستدرک (2/15، رقم 2166).
- والبيهقي في شعب الإيمان (12/87، رقم 9089).
- (25) قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ».
- أخرجه مسلم (4/2052، رقم 2664/34).
- (26) قال ﷺ «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى».
- أخرجه البخاري (2/112، رقم 1427).
- وفي غير هذا الموضع.
- ومسلم (2/717، رقم 1033/94).
- (27) أخرجه البخاري (2/123، رقم 1470).
- وفي غير هذا الموضع.
- (28) سورة الأعراف/56.
- (29) سورة الحجرات/13.
- (30) سورة الملك/2.
- (31) سورة العنكبوت/64.
- (32) سورة الرعد/11.